DOI:10.18018/URUK/020-13/200-219 ISSN : 2072-6317(P) - 2572-5440(O)

جامعة المثنى / كلية التربية للعلوم الانسانية
مجلة اوروك للعلوم الانسانية
موقع المجلة : www.muthuruk.com

BM-Publisher

التعايش الديني في مدينة بغداد من خلال كتب الرحلات (1573-1875)

منتصر حسن دهيرب*
مهى مزهر كاني
جامعة المثنى / كلية التربية للعلوم الانسانية

معلومات المقالة

تاريخ المقالة:
الاستلام: 2019/5/14
تاريخ التعديل : 2019/6/10
قبول النشر: 2019 /6/18
متوفر على النت:2020/3/9

الكلمات المفتاحية :
التعايش الديني
الرحالة الاجانب
كتب الرحلات
حقبة السيطرة العثمانية
الانفتاح الديني
مدينة بغداد

الملخص

تعد الرحلات الاجنبية الى العراق مصدرا مهما من مصادر البحث التاريخي ، فكتب الرحلات اشارت الى تفصيلات كثيرة عن المجتمعات التي كتبت عنها ، لذا ركزنا في تلك الكتب على بحث مفردة التعايش الديني في المجتمع العراقي خلال حقبة السيطرة العثمانية ، وكيف تطرق الرحالة الى صورة التعايش الديني في مدينة بغداد تحديدا ، وكيف كانت العلاقة قائمة بين المجتمع البغدادي بمختلف مللة ، ومن جانب اخر كيف اشارت لعلاقة الدولة العثمانية بالأقليات الدينية ، لذا كان البحث هو عبارة عن تسليط للضوء لحقبة زمنية معينة امتدت من (1573 م– 1875م) وكيف قيم الرحالة الاجانب فكرة التعايش خلالها ، كما عكست الدراسة صورة المجتمع العراقي وطبيعة التعايش الديني والمجتمعي فيه خلال تلك المدة.

© جميع الحقوق محفوظة لدى جامعة المثنى 2020

المقدمة

تعد كتب الرحلات احدى المصادر المهمة في الدراسات التاريخية ، كونها تسلط الضوء على الاحداث الاجتماعية والسياسية والاقتصادية خلال المدة التي وصل الرحالة الى ذلك البلد ، لذا كان البحث لتسليط الضوء على مفردة التعايش الديني وكيف تطرق لها الرحالة الاجانب لها .

اخترنا في هذا البحث لدراسة التعايش الديني والذي يعتبر هو اللب والاساس للتعايش المجتمعي ، كما اخترنا (الرحالة الاجانب) موضوعا للدراسة ، على اعتبار ان كل الرحالة الذين اشرنا لهم في متن البحث هم قادمون من دول ذات ثقافات تختلف عن ثقافة الشرق ، ولدى الكثير منهم صورة مشوهة عن العلاقات الاسلامية (الشعبية والرسمية) مع الأقليات الاخرى ، لذا ركزنا على الرؤية التي انبثقت عن هؤلاء الرحالة والصورة المغايرة التي وجدوها لاسيما عند اهالي بغداد وطرق تعاملهم الحسنة مع الاقليات الدينية ، وهذه الصورة كانت عبارة

*الناشر الرئيسي : E-mail : muntsar@gmail. Com

عن اشارات ذكرها الرحالة في كتب رحلاتهم عملنا على تجميعها واستقراءها وتوظيفها وربطها ومحاكاة ظروفها ، فكثير من الرحالة يصفون المدن ويذكرون السياسة والاقتصاد ، لكن قلة منهم من تطرق لمعيشة الاقليات وعلاقاتهم ، لذا لم يكن من السهولة ابدا الوقوف على المعلومة ذات الصلة بالبحث وسط هذا العدد غير القليل من الرحلات التي اطلعنا عليها مما اضطررنا للبحث بين السطور فكان ما خرجنا به.

اخترنا المدة (1573-1875) موضوعا للدراسة وبذلك امور عدة:

1- ان الرحلات الى بغداد لم تكن رحلات مستمرة بل كانت متقطعة بين مدة واخرى ، فضلا عن ان الكثير من الرحلات لم تتطرق للعلاقات الاجتماعية في بغداد.
2- طول المدة يتيح للباحث تتبع الاثر الاجتماعي للتعايش وتأثيراته وامتداداته وتأصيلاته النفسية عند السكان ، كما تتيح اطلاق رؤية كلية عن حقيقة التعايش في بغداد، فلكي نطلق ذلك الحكم الكلي على مجتمع ما يجب ان تدرس الآراء والمقولات التي تدعم ذلك على حقب زمنية مختلفة ، وهذا المنهج اتبعته مدرسة الحوليات الفرنسية في بحثها عن التطورات المجتمعية واثرها في مجتمع ما وهو ما عرف بتاريخ الامد الطويل.
3- يمكن من خلا ذلك اعطاء صورة اكثر وضوحا عن طبيعة العلاقات المعاشة بين ابناء المجتمع الواحد وعلى حق ومدد زمنية طويلة.

قسم البحث الى مقدمة وثلاثة مباحث وخاتمة، تضمن المبحث الاول الى وصفا لمدينة بغداد وجغرافيتها ، اما المبحث الثاني فأشار الى التعايش الديني في بغداد قبل عام 1839، اي قبل اعلان الاصلاحات العثمانية الخاصة بالأقليات ، وتطرقنا فيه الى اراء الرحالة الاجانب وموقفهم من التعايش الديني في بغداد ، وتطرق المبحث الثالث للأقليات وتعايشهم من خلال كتب الرحلات بعد الاصلاحات العثمانية ، واشرنا لما ذكر الرحالة حول ذلك.

حاولنا ان نشير في كل رحلة الى جغرافية بغداد بحسب ذكر كل رحالة ، لأننا اردنا من خلال ذلك ان نتتبع الوضع الخدمي والعمراني للمدينة وكيف تطورت المدينة خلال تلك الحقب ورسم خارطة سكانية للتوزيع المجتمعي في بغداد.

مدخل.

تعرضت الاقليات في العراق لاسيما اليهود والنصارى الى اضطهاد وعنف كبيرين بعد سقوط الخلافة العباسية ، فقد اضطهدوا وهجروا تحت حكم المغول والحكومات التي حكمت العراق خلال تلك المدة ، فبعد احتلال تيمورلنك للعراق قتل اكثر من 10 الاف يهودي في الموصل والبصرة ودمر مدارسهم وبددت الجماعة في المدن ،[1] وعمل كذلك مع النصارى ، فقد ذكر الباحث رفائيل بأبو اسحق ذلك بقوله " **هجر النساطرة بغداد والبصرة وكل مدن العراق ما عدا الموصل وتوابعها والتجأوا الى قمم جبال كردستان وبلاد فارس حتى انقطع ذكرهم من عاصمة العباسيين ... وهدمت معابدهم ... ولم تعد فئة من النصارى الى مدينة السلام الا بعد مرور قرن او اكثر على نزوح اجدادهم عنها** ".[2]

بدأت الدولة العثمانية بعد سيطرتها على القسطنطينية عام 1453 بتطبيق نظام الملل (الطوائف الدينية) منذ عهد السلطان محمد الفاتح ، فأعطت الطوائف الدينية حينها حقوقها العبادية ، فقد منحت الطائفتين اليهودية والمسيحية صلاحيات اوسع في ادارة شؤونها وقضايا رعاياها ، ومنحتهم حق التمتع في ادارة اموال واملاك الاديرة والمعابد ، لكن تلك الصلاحيات ضيق عليها وفقا لتوجهات السلاطين والولاة والمؤثرات الخارجية للدولة.[3] فخلال فترة حكم سليمان القانوني منح الاقليات الحريات الواسعة في ادارة شؤونها ، وشعرت (لا سيما اليهود منهم) بنوع من الاستقرار النسبي. فقد احسن مراد الرابع لليهود كثيرا ولبى الكثير من مطالبهم، وكتب اليهودي اسحق زرفاني في منتصف القرن

DOI:10.18018/URUK/020-13/200-219

السادس عشر رسالة الى يهود المانيا يدعوهم للقدوم الى بلاد الاتراك لما يتمتعون به من امتيازات اذ قال " ان بلاد الترك ارض لا يعوزكم فيها شيء فمنها تصلون الى الارض المقدسة سالمين ، كما يتمكن كل واحد هنا من لبس افخر الثياب ومن الجلوس تحت كرمته، اما هناك تحت حكم النصارى فأنكم لا تقدرون على الباس اولادكم اللون الاحمر او الازرق".[4]

كانت الاقليات خلال حقبة حكم المماليك في العراق تعاني من مضايقة الولاة لهم،[5] فقد كانوا قبل عام 1831 ملزمين بعدم امتلاكهم اي نوع من العبيد ، ويمنعون من ركوب الحيوانات في الشوارع ،[6] وكان على ابناء الطوائف (مهما كان مركزهم) ان يترجلوا عن حميرهم اذا مروا بقرية الاغا او من هو اقل منه درجة احتراما لهم ، وكان عليهم ان ينحنوا بهاماتهم وجذوعهم اذا مر من امامهم احد الموظفين العثمانيين ،[7] لكن بعد ذلك تغيرت احوالهم و سمح لهم بامتلاك العبيد وركوب الحمير والبغال فقط ، وشرط عليهم عدم ركوبها مطلقا او النزول منها عند مرور سيد من السادة ، واستمر منع ارتدائهم العمائم البيض والخضر لأنها خاصة بالمسلمين حصرا .[8]

المبحث الاول : جغرافية بغداد وتقسيماتها كما وصفها الرحالة الاجانب.

اسباب الرحلات واهميتها.

تعد الرحلات واحدة من العلوم المهمة التي يستند اليها الباحث العلمي في كتاباته الفكرية او الوصفية، وتكمن اهمية تلك الكتابات لكونها تشتمل على عنصرين مهمين هما: المعاصرة الزمكانية للحدث ، فضلا عن اصالة المعلومة المنقولة عنها. فالنص الرحلي هو نصاً مملوءاً بالأحداث التي اعتادت العين على مشاهدته واطالة التمعن به، كما يعد مهماً جداً في التوظيف عند الكتابة التاريخية لملازمته الحدث كما اسلفنا.[9]

اما الرحلات فهي متنوعة من حيث المظهر والهدف والغاية، فمنها ما كانت لأهداف استكشافية او تبشيرية او استطلاعية معرفية فضلا عن الرحلات الاستخبارية. وقد حرص رواد الرحلات على ايراد وصفاً دقيقاً للمناطق والاحداث التي يمرون بها، لذا نجد ان الرحلة الواحدة تتنوع بين الوصف الجغرافي والسيسيولوجي والمناخي والسياسي ، لذا يمكن القول ان النص الرحلي هو نص بانورامي التقط لمجتمع معين في مرحلة من مراحله ، ووضع تحت ناظرنا للتزود منه معرفيا.[10]

اجتاح الاقطار الاوربية في القرن الخامس عشر تيارا مهما عرف بتيار الانسانيات[11]، فأنكب ارباب ذلك العصر بالبحث والتنقيب عن التراث القديم بدأً بالتراث اليوناني واللاتيني ونهايةً بأدب الشرق، وفي نهاية القرن السادس عشر توجه علماء الغرب للبحث في التراث الفكري والادبي الشرقي واستكشاف الحضارات القديمة ، فقد شرع الباحثون بالتعمق في دراسة حضارة الشرق وبمختلف ميادينها مثل (الطب ، الرياضيات، الفلك ، الفلسفة) ، فيما عكف آخرون على دراسة التاريخ والحضارة الاسلامية ، وكانت الغاية الرئيسة في ذلك هو نشر الديانة المسيحية ومجادلة رجال الدين المسلمين.[12]

كان العراق المحطة الابرز للرحلات الاوربية ، وذلك لأسباب عدة منها:

1- عمق حضارته وسعت ثقافته .
2- يعد بلداً غنياً لذا قصده الرحالة لغرض التجارة.
3- يعد بلداً متعدد الثقافات والاديان وشعبه من الشعوب المنفتحة دينياً ومتعايشة بصورة سلمية.[13]

تعد بغداد والموصل والبصرة من اهم الحواضر الثقافية العراقية على مختلف الازمان، كونها تمثل مراكز متنوعة للثقافات العراقية ومدن كانت التعددية الدينية حاضرة بها، لذا قصد اغلب الرحالة تلك المدن وجعلوها مراكز انطلاق لرحلاتهم ، كما كتبوا وصفاً دقيقاً لكل مدينة شملت الجوانب السياسية والاجتماعية والجغرافية.[14]

لم تكن بغداد تلك المدينة العامرة المستقرة ، فقد تعرضت للنكبات والصراعات الداخلية و الخارجية

DOI:10.18018/URUK/020-13/200-219

والتدمير الاهوج على جميع الاصعدة ، فبعد سقوط الخلافة العباسية تعرضت بغداد لهجات خارجية اودت بعمارتها وتعايش ابناءها، وبعد ظهور الدولتين العثمانية والصفوية اضحت محور الصراع العثماني الصفوي منذ 1534، وبعد فرض الدولة العثمانية السيطرة عليها وعلى العراق بصورة عامة جعلت منه مكان لجمع الضرائب فقط دون العمل على تطويره او بناءه ،[15]

ان صورة بغداد كما كانت عليه زمن زيارة الرحالة اليها تعد مظهرا للحقب التاريخية للاحتلال الاجنبي لها وما رافقه من تدمير واهمال لمعالمها الحضارية ، فالخراب استولى عليها حتى ان قليل من الابنية كان يستحق المشاهدة.[16]

لذا اشار اغلب الرحالة للرثاثة العمرانية لبغداد عند مقارنتها بالمدن القادمين منها، فقد ذكر الرحالة ليونهارت راروولف ان بغداد حتى عام 1573 كانت على قسمين يشقهما نهر دجلة ، وهي مدينة تفتقر الى النظافة والتنظيم ، فشوارعها ضيقة وبيوتها غير جيدة البناء ، وتكثر بها الجوامع القديمة الخربة فقال " ... **ومثل هذا ينطبق على المساجد التي كانت لقدمها تبدوا سوداء ، فقد تهدمت بحيث يصعب عليك ان ترى واحد منها سالما** ..." [17] .

مر الكثير من الرحالة الاجانب في مدينة بغداد ووصفها الكثير من حيث العمران والتعدد والاسواق والاثر السياسي، وبعد الرحالة الايطالي بالبي احد هؤلاء ان لم يكن اولهم ، فقد قدم وصفا جيدا للمدينة وسكانها واثرها الجغرافي والتجاري المهم بالنسبة لبقية مدن العراق، وقد اثر ذلك ايجابا على تنوعها وتعايشها الديني .

فالرحالة بالبي الذي سماها(بجياديت) سحرته المدينة بمناظرها الخلابة وبساتينها المنشرة العامرة وكثرة مساجدها الملونة، وتمتاز بغداد بكثافة سكانها رغم صغر مساحتها ، وتمتاز ايضا بكثرة وفود الاجانب اليها لأغراض التجارة والاستكشاف ، فالمدينة ترد اليها العديد من القوافل التجارية يوميا والتي تتجه الى بقية ارجاء المنطقة بمختلف الاتجاهات ، فقد عبر بالبي عن ذلك بقوله"... **تجري فيها الاعمال التجارية بكثرة لبضائع الاجانب ، لأنها ممر مهم الى بلاد العرب والى تركية ، والى بلاد فارس والى سائر الاقطار ، ومما يؤيد كلامي كثرة القوافل التي تمر بها يوميا ، اذ تدخل اليها وتنطلق منها في مختلف الاتجاهات**" .[18]

ان حجم التبادل التجاري اسهم بصورة واضحة في زيادة التعايش الديني والمجتمعي في المدينة ، فكثرة الوافدين اليها من الاجانب ومن مختلف الملل والنحل اسهم في ذلك التعايش.

وكانت عمارة المدينة موضع نقد من الرحالة الفرنسي باتيست تافرنييه الذي زار بغداد عام 1632 واشار الى عمارتها بقوله " **ان جوامعها معدودة وخاناتها العشرة متداعية وحالتها العمرانية سيئة وهي غير مأهولة بما يناسب سعة رقعتها**" ، كما وصفها الكاتب ريجارد كوك بقوله " **وهوت حال بغداد مرة اخرى الى الحضيض الاوهد ، فلقد اصاب الحصار الكثير من البنايات الكبرى فيها ولم يصلح من شأنها الا القليل . ولعل هذا الوقت هو بدء زوال ما بقي من مشيدات عهد الخلفاء ، وانهيار المدارس والحياة الثقافية في المدينة انهيارا نهائيا**".[19]

اما الرحالة ديللافاليه -الذي زار بغداد عام 1626- فميز بين مدينتي بغداد وبابل، فذكر ان بغداد تختلف من حيث الموقع عن بابل، وميزها ايضا عن سلوقية او طيسفون . واكد ان اسم المدينة هو بغداد وليس كما يطلق عليها _بحسب تعبيره_ (الجهلة) اسم بغدات، او كما اسماها العامة (بابل) ، كما رفض التسمية التي اطلقها ماركو بولو وهايتون الارمني وهي (بلداك) او تسمية الشاعر الايطالي بترارك (بلداكو).[20]

تقوم مدينة بغداد على نهر دجلة وتنقسم الى قسمين الاول على ضفة النهر الغربية وهي غير مسورة ،اما الجهة الاكبر منها تقع على الضفة الشرقية وهي محاطة بسور . اما بنائها فهو من الطابوق القديم المشيد بالطين ، واغلب البيوت اقل من ارتفاع الطرق ، وقد عمد الناس لذلك البناء تلافيا لحر الصيف ، لذا خلت بيوت

DOI:10.18018/URUK/020-13/200-219

البغداديين من النوافذ الكبيرة ، واغلب بيوتها تكون من طابق واحد فضلا عن السراديب التي يقضي بها اهل الدار معظم ساعات النهار خلال فصل الصيف .[21]

تنتشر في المدينة مساحات كبيرة من البساتين التي تحتوي اشجار مختلفة مثل النخيل والرمان والليمون ، فضلا عن الفجل والخضروات الاخرى . فيما يذكر ديللافاليه ان بعض اهالي بغداد يحرصون على زراعة الافيون وبعض النباتات المخدرة الاخرى.[22] وهذه المعلومة انفرد بها ديللافاليه ولم ينقلها رحالة غيره .

نقد الرحالة سيبستياني حال العمران في مدينة بغداد وقال انها لم تكن من المدن الكبيرة لو قارناها بإحدى مدن أوربا لكنها تكون كذلك لو قورنت بأحدى المدن الاسيوية، فهو لا يعتبرها مدينة مهمة من حيث العمران والتحصينات ، فيذكر " **ان ابنيتها وتحصيناتها هي احقر بكثير من اصغر مدننا في اوربا، لكنها في نظر الفرس والاتراك هي درع عروشهم المتين،...فيعمدون على تقوية حصونها ويدافعون عنها بكل قواهم ، مختصر القول ان المدينة ليست بتلك العظمة التي اشتهرت بها** "[23].

حاول الرحالة جاكسون ان يكون اكثر دقة في وصف جغرافية المدينة فأشار الى انها تقع على الضفة الشرقية لنهر دجلة وهي مدينة واسعة مكتظة بالسكان تمتد على ضفاف النهر حوالي 3 اميال، اما طول اسوارها الممتدة على النهر فهي زهاء ميلين ، اما اسواقها فهي واسعة مزودة بمختلف المواد ، ويشكل الارمن التجار الرئيسين للسوق وهم يعملون في بيع النحاس.[24]

اما الرحالة دوبريه فوصف مدينة بغداد وموقعها فقال " تقع بغداد على ضفة دجلة على بعد 12 فرسخا جنوبا من بابل القديمة (سامراء) "،[25] وحسب التقسيم الاداري للعراق فان مدينة بغداد آنذاك كانت تشمل اغلب مناطق وسط وجنوب العراق الحالي ، وقد حاول الرحالة دوبريه ان يصف حدودها بقوله " ان ولاية بغداد محدودة شمالا بباشوية ديار بكر وجبال العمادية ، ومن الشرق ببلاد فارس ، ومن الجنوب بالخليج الفارسي ومنطقة البصرة ، ومن الغرب بمدن اورفا والبيرة وتدمر والصحراء العربية اي بادية الشام. وتبلغ مساحة هذه الولاية 250 فرسخا طولا و180 عرضا " .[26]

وتقع بغداد على خط عرض(15، 33) وخط طول (43,13)، ويقسم نهر دجلة المدينة الى قسمين ، ويحيطها سور مشيد بالآجر ، ويوجد في المدينة جسر واحد وقوارب عدة لنقل الناس الى جانبي المدينة ، ما القسم الايمن للمدينة (الكرخ) فهي ضاحية عامرة بالبساتين وغابات النخيل ، وقد شيد الباشا سليمان الكبير لها سورا وحفر لها خندقا ويتم الدخول اليها من ابوابها الاربعة وهي:

1_ امام موسي قبوسي (باب الامام موسى)

2_شيخ معروف قبوسي (باب الشيخ معروف)

3_حلة قبوسي (باب الحلة)

4_كريمات قبوسي (باب الكريمات)

اما الجانب الايسر من المدينة فيدخل اليها من ابواب الاربعة هي

1_اورطة قيو وتقع في الشرق _جنوب (الباب الشرقي)

2_قرلنيق قيو وتقع في جهة الجنوب

3_ جزيرة قيو وتقع في جهة الغرب

4_ امام اعظم ويقع في الشمال (باب المعظم)

وهنالك باب مسدود يدعى باب الطلسم.[27]

يمتاز مناخ بغداد بالاعتدال في الربيع والخريف بينما يشتد الحر في فصل الصيف ويشتد البرد في الشتاء، ولا تشهد المنطقة اي سقوط للثلوج.[28]

حاول المنشي البغدادي ان يكون اكثر دقة في وصف جغرافية بغداد ومناطقها فأشار الى ان بغداد مقسمة الى قسمين: هما بغداد القديمة (الكرخ) وبغداد الجديدة (الرصافة) ، والمدينة لها اربعة ابواب لكلا المنطقتين وهي كالاتي:

1- باب الكاظم
2- باب الشيخ معروف
3- باب الحلة
4- باب الكريمات(تقع شرقي بغداد القديمة)

DOI:10.18018/URUK/020-13/200-219

اما بغداد الجديدة فلها اربع ابواب وهي:

1- باب الجسر وتقع وسط المدينة.
2- باب المعظم، وتقع غربي المدينة.
3- الباب الوسطاني ، وتسمى ايضا الظفرية او باب كركوك.
4- الباب الشرقي.[29]

كما ذكر المنشي وصفا دقيقا لأسواق بغداد ومراقدها الدينية، فأشار الى ان المدينة كانت تضم مختلف المراقد الدينية والخانات والمدارس، فقد ذكر المدرسة المستنصرية وجامع الخلفاء والمدرسة الوقائية وسوق الخفافين ،وخان اورطمة وجامع المرجانية وخان مرجان وسوق القيصرية وسوق المرجانية وجامع بنجة علي - الواقع في شارع الرشيد- ، اما ما ذكر من المراقد في مرقد الامام موسى الكاظم وابو حنيفة والشيخ معروف وعبد القادر الكيلاني واحمد بن حنبل والسيدة زبيدة زوجة الرشيد وشهاب الدين السهروردي والشيخ ساج الدين وابو يوسف وجنيد البغدادي وغيرهم،[30] ، وذكر ايضا التكية البكداشية او ما تعرف بتكية (خضر الياس) ويعود بنائها لألب ارسلان السلجوقي وهي تشبه الكعبة من حيث الشكل، فلها اربعة اركان، وفي كل ركن منصوب به حجر اسود، لكنا التكية طالها الخراب – بحسب قول الرحالة- ولم يستطع احد قراءة الكتابات الموجودة بها.[31]

كما تعد رحلة فريزر من الرحلات المهمة كونها سلطت الضوء على طبيعة المجتمع البغدادي والعمارة البغدادية ومدى تطورها ، فقد قدم وصفا جيدا عن اسوارها واسواقها وبيوتها ، ولم يكتف بذلك بل ذكر اسماء اسواقها والمهن الشائعة آنذاك ، ويبدو ان مدينة بغداد قد تطورت عمارتها بعض الشي عما كانت عليه من وصف من الرحالة السابقين فقد قال " يعتبر منظر بغداد لأول وهلة منظرا بديعا يبعث على الانطباع الحسن ، فالأسوار منظر مهيب يؤثر في النفوس ، فهي مبنية بالآجر المطروق ومدعومة من كل زاوية بأبراج مدورة لها فتحات (مزاغل) للمدافع، وفيها بيوت مبنية من عدة طوابق ذات منظر حسن اما اسواق المدينة فهي ضيقة وغير مبلطة واغلب تلك الاسواق مظللة بسعف النخيل وفي بغداد اسواق عديدة تسمى بأسماء ممتهنيها مثل سوق الغزل وسوق الموسلين وسوق الحنطة وغيرها .[32]

وانفرد الرحالة جيمس فيلكس جونز عام 1853 بذكر التقسيمات الداخلية لأحياء المدينة ، فأشار ان بغداد في جانبها الشرقي (الرصافة) تحوي على 40 محلة وتحوي تلك 300 شارع (عكد) اما الجانب الغربي فيحوي خمسة محلات فقط ، واشار الرحالة الامريكي تيرمان ان اغلب سكان بغداد يعيشون بالجانب الايسر منها وهي تحوي على 18 محلة غير متجانسة التوزيع السكاني ، ففي احداها الف دار وفي الاخرى 50 دارا فقط ، وذكر ان العدد التقريبي للدور هو 90 الف دار.[33]

المبحث الثاني: التعايش الديني في بغداد كما وصفه الرحالة الاجانب قبل الاصلاحات العثمانية (1626-1822).

اخضعت الدولة العثمانية الاقليات الدينية لقوانينها الخاصة ، وحدت بذلك من حرياتهم الشخصية والعبادية ، ولم تساوي بينهم وبين المسلمين في التعامل والحقوق ، لكن رغم ذلك كان العراق بصورة عامة وبغداد بصورة خاصة اقل اقاليم الدولة العثمانية تضييقا على حريات الاقليات ، بل لم يتعرض اي من الاقليات الى اضطهاد على اسس دينية من قبل الاكثرية المسلمة .[34] وذكر ذلك اغلب الرحالة الاجانب الذين زاروا بغداد خلال تلك المدة.

اولا: رحلة ديللافاليه 1626

لم تكن مدينة بغداد مدينة للانفتاح فقط ، فقد شكل اهالي حزام بغداد روح لذلك التعايش ، فيذكر الرحالة الايطالي ديللافاليه عند وصوله بالقرب من بغداد انه مر بقرية صغيرة كان اغلب اهلها من المسلمين ،لكنه سمع ان بين اهالي القرية كانت تعيش طائفة لا يؤمن اصحابها بالأخرة او بوجود الله، اذ لا صيام عندهم او صلاة ، ولا يقيمون اي شعائر لعبادة الله ، بل لا يقيمون حرمة لمحارم الله ، فهم لا يتقيدون بشرائع

DOI:10.18018/URUK/020-13/200-219

المجتمع او الدين ، فهم يتزوجون بالأمهات والاخوات ،ويعتقد الرحالة بحسب ما نقل اليه انهم يعبدون الشمس لانهم ينحنون لها عند الشروق ويحيونها بالتمتمات والرموز الخاصة ، فهم يفعلون ذلك سرا خوفا من سلطة الدولة الاسلامية ، فيعتقد الرحالة وناقلوا الاخبار انهم من بقايا المجوس .[35]

ان ما يعنينا من امر هذه الفئة التي انفرد هذا الرحالة بذكرهم انهم كانوا يعيشون مع المسلمين في الارض نفسها وفي ذلك دليل واضح على عمق التعايش الديني والمجتمعي العراقي .

كانت غالبية سكان بغداد من المسلمين بمختلف مذاهبهم ، اما المسيحيون فلم تكن اعدادهم كبيرة في المدينة . فقد تعرضت بغداد 1508 الى هجمة صفوية كبيرة بقيادة اسماعيل الصفوي استطاع من خلالها ان يحتل المدينة ويخضعها لمذابح كبيرة شملت المسلمين السنة والمسيح الا اليهود فسلموا منها ،[36] ويذكر الاب الدكتور بطرس حداد ان مسيحي العراق لم يبق لهم باق بعد تلك الحملة.[37]

ووفد اليها المسيحيون منذ سنوات قليلة هربا من الرعب الذي تعرضوا له في مختلف بقاع الولايات العثمانية ، ويشير ديللافاليه الى ان المسيحيين حتى تاريخ وجوده لم يسمح لهم بناء الكنائس او اقامة شعائرهم الدينية ، بل كانوا يعاقبون اذا ما فعلوا ذلك . وقد ذكر ذلك بقوله "... **كما كان لنصارى مقابرهم الخاصة حسب طوائفهم وطقوسهم . لان المسيحين وفدوا الى بغداد منذ سنوات قليلة هربا من الحروب والقلاقل في البلاد الاخرى . ولا توجد حتى الان كنيسة خاصة بهم ولا يسمح لهم بإقامة الشعائر الدينية لذلك ، فعندما يريدون اقامة القداس يجتمعون سرا في بيت خصص لهذه الغاية ويقام القداس حسبما فهمت من دون مذبح خوفا من السلطات التركية ان تعثر عليها فتكون العاقبة وخيمة** ...".[38]

من خلال ما ذكره الرحالة نجد ان اقامة الشعائر المسيحية كان ممنوع من السلطات العثمانية ، وليس هنالك اي منع من الاهالي ولم يتطرق الى اي مضايقات من اهالي بغداد اطلاقا . وذكر الرحالة ايضا " ... **وكان عدد النصارى في بغداد قليلا فقد مرت فترة من الزمن لم يكن فيها اي نصارى ابدا، ولكن في الفترة الاخيرة وفد اليها عدد من مختلف الجهات ينتمون الى مختلف الطوائف ، التجاؤا اليها للتخلص من الحروب المتكررة والفتن والاضطرابات التي كانت تنشب في ديارهم ، فجاءوا الى هنا طلبا الى الاستقرار والامان .ونظرا لقلة عددهم وحداثة تجمعهم في المدينة ، لم يسمح لهم حتى الان بممارسة شعائرهم (علنيا) لذا فهم يمارسونها بالخفاء نوعا ما ولا يتظاهرون بها فحالتهم حرجة وجهلهم بالأمور الدينية مطبق،... لذا نجد بين الشعب صبيانا لم ينالوا العماد بعد اما بسبب غياب القس من طقسهم او لعدم تمكن ذويهم من دفع المال المطلوب ... فالقساوسة في بغداد بخلاء جدا لا يقدمون الخدمة الدينية الا لقاء مبالغ مالية**".[39]

ثانيا: رحلة سبستياني 1664 .

بعد سيطرة الدولة العثمانية على العراق وسيطرتها على بغداد بقيادة السلطان مراد الرابع عام 1638 ،[40] تحسنت احوال الاقليات في بغداد وبدأوا يمارسون شعائرهم الدينية بحرية اكبر، وبعد تولي اق محمد باشا (محمد باشا الابيض) ولاية بغداد خلال مدة {1654_1656} تحسنت احوال الاقليات في بغداد لاسيما المسيحية منها ،ويعود ذلك الى خلفية الوالي نفسه ، فهو بوسني مسيحي ، كان يكن احترام كبير للأباء الكبوشيين في بغداد، فقد عمل احد الاباء الكبوشيين على شفائه من مرض ابتلى به ، لذا حرص الوالي على ان يرسل صدقة جارية ، وقد عمل مفتي بغداد وقاضيها ورئيس الانكشارين على ارسال الهبات اسوة بالوالي ، لذا تراكمت الصدقات وزادت عن حاجة الاباء ،فراح يوزعونها على الفقراء المسيحين ، وقد اعفى الوالي المسيحين من دفع الضرائب المفروضة عليهم سابقا.[41]

DOI:10.18018/URUK/020-13/200-219

اخذت العوائل المسيحية في التزايد خلال تلك المدة،[42] فبلغت عدد العوائل الكاثوليك نحو (30 الى 40) عائلة اما الارمن و اليعاقبة و النساطرة فلا يزيدون مجتمعين عن 200 عائلة ، وهم يجتمعون للصلاة سوية في دير الاباء الكبوشيين .[43]

وذكر الاب بطرس حداد عن احداث تلك المدة بقوله " ... **نحو سنة 1628 اخذنا المأوى في بغداد ، حيث تعلم اول المرسلين وهو الاب جوست اللغة العربية ، واستطاع ان يكسب حالا من السريان نحو 20-30 عائلة ، وقسما كبيرا من النساطرة الذين يعدون ما بين 70-80 عائلة ، ... ولهم فيها مدرسة ما بين 20-25 صبيا** ..." ، وعندما احتل العثمانيون بغداد عام 1638 وضعوا اليد على دير الاباء ، فتوسط لهم عند السلطان السيد ميخائيل اغا طوبجي باشي -والذي كان قريب من العثمانيين- فأعيد الدير الى اصحابه وايده حقوقهم بفرمان عام 1639.[44]

يذكر لونكريك ان التسامح الديني في عهد الوالي اق محمد باشا كان منتشرا في بغداد ، فقد فتح كنيسة للنساطرة واخذت الاقليات تمارس حريتها الدينية ، كما كانت ابواب الكنائس مفتوحة لعرب والاتراك على حد السواء لغرض تلقي العلاج الطبي ، فالكثير من السكان كان يقصدهم لتلقي العلاج .[45] يذكر الرحالة سبستياني قبل مغادرة بغداد انه استقل دانكا للوصول الي البصرة وكان الدانك يحمل اتراك كثيرون ودراويش وتجار وجنود انكشاريون وجماعة من البدو و الهنود وقسيس احدهما نسطوري واخر يعقوبي وكاهنان ارمينيان.[46]

ان التنوع الكبير للسكان على ظهر الدانك يبين لنا حجم التنوع اديني ولعرقي في بغداد ، فكانت تضم مختلف الاديان والملل ، رغم ذلك لم ينقل الرحالة سبستياني خلال مدة مكوثه الى اية حادثة تشير الى حدوث مضايقات من المسلمين للاقليات الاخرى ، حتى على ظهر ذلك الدانك الذي اقلهم الى مدينة البصرة ، رغم ان المسلمين الذين كانوا في الدانك متدينين لكنهم كانوا يبدون كل الاحترام والتقدير لمن معهم من ابناء الاقليات او الاجانب . فقد ذكر سبستياني ما نصه "... **وهم يصلون بسجدات وركعات وانحناءات متكررة، ولم يتأخروا عن موعد الصلاة .... وللمسلمين ادعية كثيرة واوراد يرددونها دائما ونحن في المركب يطلبون من الله السفر الميمون الموفق**" .[47]

كان مسيحيو بغداد يخضعون في قمعهم وارضائهم لمزاج والي بغداد،[48] ففي الوقت الذي لقوا فيه معاملة حسنة من الوالي اق محمد باشا نجد ان تلك المعاملة قد تغيرت بعد تولي بغداد الوالي (محمد الخاصكي) (1656_1659) فقد قدم عليه بعض الوشاة ممن تحاملوا على الحرية التي تمتع بها المسيحيون ايام الوالي السابق وقيامهم ببناء كنيسة كبيرة لهم ، فعمل على اضطهادهم ووضع يده على الدير واقام مكانة مسجدا ثم كبلهم بالحديد واوقفهم ووضع بعضهم تحت الاقامة الجبرية في بيت احد المسيحين ومنعهم من الخروج .[49]

وقد ذكر عباس العزاوي تلك الحادثة بقوله " **في ايام هذا الوزير كان بنى بعض الرهبان كنيسة بقرب مرقد الشيخ الازهري وهو من الاولياء والمشايخ العظام ، حتى ان النصارى لم يبنوا في بغداد من ابتداء عمارتها ديرا (كذا) فلما سمع الوزير بذلك ضرب الكنيسة وبنى موضعها جامعا يئمه المسلمون واعلى قبته وبنى له منارة وجعل طبقاته مقرنسة ، واتخذ له جدرانا قوية وسمي (جامع نور سلحدار محمد باشا) وعرف باسم جامع محمد باشا السلحدار ثم شاع باسم جامع الخاصكي** ...."[50].

اما الاب سهيل قاشا فقد اشار الى ان الوشاة والتحريض كان من جماعات مسيحية مبغضة لانتشار المسيحية الكاثوليكية حيث قال " ... **بيد ان ازدياد عدد المتكثلكين لم يكن يجري برضا قيادات الطوائف القديمة حتى يمكن القول بان الصراع بين الطرفين كان هو السمة الاساسية للحياة الاجتماعية لنصارى العراق ابان عهد المماليك . وكانت الوشاية لدى الحكومات المحلية من الاساليب التي كثيرا ما لجا اليها المتنازعون ، خاصة ان تهمة تعاون ابناء البلاد الكاثوليك مع المبشرين**

DOI:10.18018/URUK/020-13/200-219

الاوربيين وهم اجانب تبدو معقولة دائما ، فبسعي من النساطرة واليعاقبة الارثدوكس طرد والي بغداد محمد باشا الخاصكي الكبوشيين من مقرهم ببغداد سنة 1658..."[51].

ويبدو ان رواية الاب سهيل قاشا منطلقة من خلفيته الدينية الكاثولوكية المبغضة لبقية الطوائف ، فالاقليات لم تكن صاحبة قرار في قصر الوالي كي تشي بطائفة اخرى ويقوم الوالي باضطهادها ، لكن الروايتين الاخريين كانت الاقرب للمنطق لانها الاقرب لعقلية الولاة ذات الطابع الديني ، فبناء كنيسة اكبر من الجوامع ما يثير ردة فعل عند الولاة ، ويبدو من العرض اعلاه ان الوشاة وحاشية الوالي قدا اوغلوا صدر الوالي ضد المسيحين وبناءهم الجديد في بغداد، فالبناء على ما يبدوا بناءً كبيرا وهو اكبر من مساجد بغداد الاخرى ، لما كان الوالي الجديد معروف بتدينه(بداية حكمة) كبر عليه ان يكون للمسيحين بناءً كبيرا او قد يكون الاكبر في بغداد ، لذا حرص على مصادرته والنكاية بهم ، والحقيقة لا يعرف سبب تلك النكاية الكبيرة بهم فلم تذكر المصادر ذلك السبب ؟؟

وعلى الرغم من ذلك لم يتوقف النصارى عن ممارسة شعائرهم فقد اشترى الاب جوست الكبوشي دارا في بغداد واتخذها مسكنا ومصلى يقيم فيها و جماعته العروض الدينية، وكان الدار مجاورا لقبر الشيخ محمد الازهري وكان في السابق محلا لبريد حلب ثم مقرا للقنصل الانكليزي (مدير شؤون بريد شركة الهند الشرقية) ، ثم انقسم الى دارين احدهما لاسكندر غالب بن انطون موسى والثانية ليعقوب سويدة .[52]

كانت الدار الجديدة الذي حل بها الرهبان ملاذا للمسيحيين من مختلف الطوائف ولا سيما تلك التي لا تمتلك اي دار للعبادة مثل السريان والارمن ، وبهذا كتب السائح تافرنييه ما نصه " ... **الارمن واليعاقبة ليس لهم كنيسة ، بل يصلون في كنيسة الكبوشيين الذين يقيمون لهم الشعائر الدينية** ..." ، وكان للنصارى على بعد ربع فرسخ مكان للعبادة باسم (خضر الياس)، وكانوا يدفعون مبالغ زهيدة للاتراك مقابل السماح لهم بالعبادة هناك ، وعلى بعد يومين من المدينة يوجد هنالك مكان للعبادة يقع في خربة داخل قرية حقيرة – حسب قوله- ، ويقول النصارى ان مار شمعون ومار يهوذا قد دفنا فيها . وفي المدينة عدد من اليهود يذهبون كل سنة لزيارة مرقد النبي حزقيال في الحلة ، والذي يبعد يوم ونصف عن بغداد.[53]

ووصف الرحالة الايطالي (اوربانو جري) اوضاع المسيح في بغداد بقوله " ... **والسريان والارمن الذين دانوا بالكثلكة فانهم يترددون الى تلك الكنيسة ، ويتلقى اولادهم التثقيف عندهم، وعدد المؤمنين في بغداد كثير جدا**" .[54]

لم يستمر اضطهاد المسيحين طويلا في بغداد ،فيذكر الرحالة سبيستياني ان الوالي محمد الخاصكي بعد ان ظهر له مظلوميتهم وحسن سلوكهم اشترى لنصارى بيتا جديدا احسن من السابق وجعل من الطابق الارضي معبدا لهم . فعادوا اليه فرحين .[55]

وبهذا الخصوص يذكر لونكريك التسامح الديني في بغداد اذ قال " **وقد عاش النصارى واليهود في ظل نظام كان التساهل فيه يزيد على ما كان منه في الولايات الاخرى، فان بغداد كانت عالمية (والمذاهب الاسلامية نفسها مفترقة جدا) الى حد انها لا تشجع شيوع التعصب ، يضاف الى ذلك ان هذه الاقليات كانت تسلك سلوكا حسنا ، كما كان الناس قد الفوهم نظرا لطول اقامتهم ولعدم وجود ما يمنع اختلاطهم بباقي السكان**..." .[56]

رغم التضييق الذي مارسه الولاة على المسيحيين في بغداد ، لم يمنع الناس والاقليات الاخرى من مخالطتهم والتعايش معهم ، فكلام لونكريك " ... ولعدم وجود ما يمنع اختلاطهم بباقي السكان " يؤيد ما ذهبنا اليه ، فالسلطة شيء والسكان شيء اخر، فلا الرحالة سيبستياني ولا الاباء المعاصرين الذين كتبوا عن تاريخ النصارى في العراق امثال الاب سهيل قاشا تحدثوا عن اي تضييق شعبي على المسيح او الاقليات الاخرى في

DOI:10.18018/URUK/020-13/200-219

بغداد ، وهذا بحد ذاته صفة عليا للتعايش الديني في المدينة .

ثالثا: رحلة ليوناردو الكرملي 1733.

تحسنت اوضاع الاقليات الدينية في بغداد على مدى السنوات التالية من رحلة سبيستياني ، فخلال رحلة ليوناردو الكرملي كانت الاقليات الدينية ولاسيما المسيحية تلاقي معاملة حسنة من السلطات العثمانية واهالي بغداد، اذ حاول الرحالة ان يصف مدينة بغداد واحداثها وابرز شخصياتها واقلياتها من خلال رحلته ، كما وصف حالات الصراع العثمانية والفارسية وحصار بغداد ، ويذكر الاب الكرملي من ضمن حالات لتعايش في بغداد انه في عام 1739 قام شاب مسيحي بطعن اخيه حتى الموت وعندما حاولت امهم منعه اقدم على طعنها ، ولما سمع جيرانه المسلمين بذلك هرعوا الي بيت المسيحي فأوقفوه وهرعوا الى الكنيسة لدعوة الاب لياندرو الكرملي لتطبيب الام وانقاذ حياتها.[57]

تظهر هذه الحادثة مدى تلاحم اهالي بغداد وتعايشهم ، اذ لم يسمحوا لذلك المسيحي باستكمال جريمته وهرعوا لمساعدة تلك الام لغرض انقاذ حياتها.

كان المسيح في بغداد يحضون بمكانة جيدة عند الوالي (احمد باشا) فقد ذكر ليوناردو الكرملي ذلك في مواضع عدة ، فقد استعان الوالي بالأب الكرملي اكثر من مرة لمعالجة اهل بيتة ومعالجته شخصيا ، وقد حدث ان شفى على يدية الوالي واخته وابنته من امراض كثيرة كانت تلازمهم.[58]

ذكر الاب الكرملي ان بغداد خلال حكم احمد باشا قد نعمت بالأمن والامان وشعر المسلمون والمسيحيون بالسلام والتعايش والمحبة ،[59] نتيجة لذلك اصدر الوالي احمد باشا قرار اذاعه حاجبه امين جاويش بالقرب من جامع الخلفاء بحضور 52 شخصية من مختلف اهالي بغداد ، فقرا على مسامعهم الاوامر الصادرة من الصدر الاعظم والوالي ، والمتضمنة انزال عقوبة الموت ومصادرة الاموال على كل من يتجرأ ويمنع بأي طريقة المسيحين بمختلف طوائفهم من اتيان الكنيسة او ممارسة طقوسهم الخاصة .[60]

لم تكتف السلطات في بغداد بالسماح للمسيحين بممارسة شعائرهم الدينية فقط ، بل سمحت لهم عام 1731 ببناء كنيسة خاصة للرهبان الكرمليين ، وكانوا قبل ذلك يذهبون خفية لاحدى البيوت لممارسة شعائرهم الدينية ، واستمرت تلك الظروف من عام 1628 حتى عام 1730 ، عندما عين الاب عمانوئيل من (كنيسة سانت ألبرت للرهبان الكرمليين) اسقفا لبغداد وقنصلا عاما لفرنسا فيها ، وقدم الاخير التماسات عدة لحاكم بغداد احمد باشا لغرض بناء كنيسة خاصة بهم ، عند ذلك اصدر الحاكم امرا بذلك، واقيم اول قداس فيها بتاريخ 14 تموز 1731.[61]

عمل الاباء الكرمليون وعلى راسهم الاب بابيه عام 1731 على شراء دارا في سوق الغزل كانت نواة لدير الكرمليين في بغداد ،[62] وقد فتح معبدا هناك على اسم مار توما رسول الشرق ، ثم فتح مدرسة للأولاد عام 1737 ، وهي النواة الاولى لمدرسة القديس يوسف الكائنة في (عقد النصارى).[63]

نتيجة لذلك نمت الحركة الدينية المسيحية في بغداد وارسلت العوائل المسيحية ابنائها للتعلم في مدارس الكنيسة ،[64] واقامة الشعائر الدينية بحرية كاملة.[65]

اما اليهود فكانت حقوقهم محفوظة ايضا ومعابدهم مفتوحة للزائرين والعابدين ، فالأقلية اليهودية في بغداد كانت تربطهم علاقة قوية بمرقد نبي الله ذو الكفل احد انبياء اليهود ، وكان مرقده مزارا لمختلف الطواف الدينية، ويذكر الرحالة ليوناردو الكرملي قصة زيارته لذلك المرقد بقوله "**واتتني في تلك الايام فرصة الذهاب لزيارة ضريح النبي ذو الكفل ... وبعد سير خمسة عشر ساعة وصلنا الى الحلة ... ففي هذه المدينة شرع الرابي اشي ase المشهور بكتابة التلمود البابلي ، وبالكاد استطاع ان يدون 35 كتابا اذ حال الموت دون ذلك فاكمل تلاميذه العمل من بعده**" .[66]

DOI:10.18018/URUK/020-13/200-219

تعرضت بغداد لهجوم صفوي بقيادة نادر قلي في كانون الاول 1732، اذ فرض حصارا شديدا على المدينة استمر حتى تموز 1733، وكان الجيش الفارسي قد نزل بالقرب من قصبة الامام الاعظم في بغداد، لكن التحصينات القوية للمدينة وثبات المقاومين حال دون اقتحام المدينة، وخلال ذلك عانى اهالي بغداد من الجوع والاوبئة، فقد اكل الناس لحوم الجيف والكلاب والقطط، ومما زاد الامر سوءا هو امر احمد باشا اهالي بغداد بالانتقال من الكرخ الى الرصافة كي يحتموا بأسوارها المنيعة مما تسبب باكتظاظ الجانب الايسر للمدينة بالسكان وتزاحمهم وقلة مؤنهم ، وكادت المدينة ان تشرف على الموت لولا قدوم التعزيزات العثمانية بقيادة طوبال عثمان باشا، الذي التقى بجيش نادر قلي بالقرب من سامراء واشتبكا لتسع ساعات متواصلة انتهت بهزيمة الجيش الصفوي ومقتل 30 الف مقاتل ، ما دفع نادر قلي لسحب قواته والهروب باتجاه بلاد فارس.[67]

وبعد نهاية حصار بغداد كان الفرس يملكون عدد ليس بقليل من العبيد المسيحين الذي جرى اسرهم في العراق ، وكان الفرس يبيعونهم بأبخس الاثمان ، ويجري احيانا التبادل بهم لقاء افراس او حيوانات اخرى او اشياء مختلفة ، اما الذين اشتروهم فهم يطالبون مبالغ عالية مقابل افتدائهم، ولما علم والي وقاضي بغداد بذلك رفضوا ان يباع المسيحيون كعبيد ، كونهم مواطنين لهم نفس حقوق المسلمين ، لذا حرر 28 مسيحيا واعيدوا الى ذويهم .[68]

ان هذه الحادثة مهمة جدا في ايضاح التعامل الاخلاقي من السلطة العثمانية (المملوكية) في بغداد مع رعاياها دون التمييز بين احد منهم، فقد ساووا بين المسلمين والمسيحيين بصفتهم مواطنين لا يميزهم الدين او الانتماء ، وهذه تحسب ايجابا للسلطة المملوكية خلال مدة احمد باشا في بغداد، كما تعكس حالة الاحترام الكبير للاقليات الدينية في المدينة ،كما تعطينا صورة واضحة على الانفتاح الديني للسلطة والذي انعكس ايجابا على علاقات الناس انفسهم، وكان ذلك قد تبين من خلال وضع قوانين خاصة لحماية الاقليات ودور عبادتهم وكنا قد اشرنا لذلك سلفا.

رابعا: رحلة نيبور 1766.

يعد الرحالة كارستن نيبور واحد من الرحالة المهمين الذين زاروا العراق خلال القرن الثامن عشر ، فقد قدم وصفا للعراق ومجتمعه ووضع ولاته وسياساتهم ، لكن في حدود موضوع بحثنا لم يقدم نيبور صورة واضحة عن الاقليات الدينية في بغداد وعلاقاتهم المجتمعية ما عدا بعض الاشارات الى الرهبان الكراملة اذ قال " **وفي بغداد راهبان من رهبان الكراملة لاحدهما لقبان من القاب الشرف ، وهو المطران النائب عن البابا في بابل ، وقنصل فرنسا ، وهو محبوب عند المسلمين كحبه عند النصارى ... وهم ايضا مبشرون داعون الى النصرانية، يدعون النصارى المشرقيين ليبايعوا البابا رئيس النصرانية، ولا يدعون المسلمين اليها ، لانهم ان حاولوا ذلك قتلوا لا محالة... وفي بغداد الكثير من اليهود وليس فيهم من البانيان[69] قط**"[70]

وفي حديث نيبور اشارة واضحة الى العلاقات الحسنة بين المسلمين والمسيحيين في بغداد ، فحب المسلمون للمطران دلالة على حسن العلاقات بين الطرفين ، كما ان المسلمين لم يعادوهم لانهم لم يسيئوا لدينهم او يبشروا بدينهم على حساب الديانة الاسلامية، ويبدو ان الامر كان ممنوعا عليهم.

خامسا: رحلة اوليفييه 1796:

ذكر الرحالة اوليفييه الذي زار بغداد عام 1796 التسامح الديني الكبير عند اهالها، وتحدث عن ظرافتهم وحبهم لبعضهم فقال " **وان سكان بغداد كانوا اكثر حلما في طباعهم من سائر سكان المدن الاخرى ، فتعصبهم الديني لا يخلو من التسامح، ولم يؤد الحسد عندهم الى ظلم كبير**..."[71].

سادسا : رحلة جاكسون 1797.

وكان بعض الارمن يديرون عمل القنصليات الاجنبية ، فالانكليز ليس لديهم قنصل في بغداد ويدير اعمالهم احد

DOI:10.18018/URUK/020-13/200-219

الارمن وهو (خوجة مايكل)،[72] وتبين من ذلك ان الاقليات في بغداد لم تحصل على حقوقها فقط بل كانوا يمارسون مهام ادارية في القنصليات الاجنبية.

سابعا : رحلة دوبريه 1807.

ذكر الرحالة دوبريه الذي زار بغداد عام 1807 ان عدد سكان بغداد قل بصورة كبيرة عام 1773 بسبب مرض الطاعون الذي اصاب سكان المدينة، حيث قضى على ثلثي سكانها، فقال ان عدد سكانها حتى تلك المدة بلغ 76 الف نسمة ، وزعوا بواقع 15,222اسرة ، منها 112 اسرة ارمنية و 90 كلدانية ، و2000 يهودية، و13 الف اسرة من العرب والفرس ، و6 عائلات اوربية من اليونانيين.[73] وبسبب هذا الوباء لقي الاباء الكرمليون حتفهم الواحد بعد الاخر ، مما تسبب بغلق كنيستهم في بغداد التي لم تفتح حتى نهاية القرن التاسع عشر وتحديدا عام 1888.[74]

حاول دوبريه ان يصف نساء المدينة وعاداتهم وتقاليدهم ، اذ وجدوا ان عادات الشعب قد تكون واحده ما يجري على الاكثرية يجري على الاقلية ، فنساء اليهود والنصارى لهن نفس عادات المسلمات من حيث اللباس والحشمة ، فكل نساء بغداد لا يخرجن الا بعد ان يرتدين الحجاب ، وقد يحظى رجال الدين الارمن برؤية الارمنيات في حين لا يحب لغيرهم ذلك .[75]

ويذكر دوبريه ان بغداد كانت تضم مختلف الملل والمذاهب ، فللكاثوليك مصلى يقوم على خدمة الاباء الكرمليون الذين يخضعون لمجمع الاعيان في روما اما الارمن يخضعون لبطريرك يرفان وقد ابدى الرحال اعجابه الكبير بحالة الانفتاح الديني والتعايش الديني في بغداد فيذكر ذلك بقوله " **تعبر ولاية بغداد الوحيدة في الإمبراطورية العثمانية التي يلقى فيها المسيحيون واليهود اقل المضايقات ، فهم يتمتعون بحرية تامة ، ويسمح لهم ان يلبسوا الاحذية الصفراء التي هي ممنوعة عليهم صراحة في ارجاء البلاد التركية كافة** ..."[76].

ان اعتراف الرحالة دوبريه ان الاقليات في بغداد تتمتع بحرية تامة اكثر من اي منطقة في الولاية العثمانية هو اعتراف مهم على ان التعايش في بغداد يختلف عنه في اي منطقة اخرى ، وقد جاء رأيه هذا بعد ان زار اغلب مناطق الدولة العثمانية ، وعلى ما يبدو ان فترة المماليك واستقلالهم الشبة تام عن الدولة العثمانية اتاح لهم حرية تصرف والانفتاح مع الاقليات في بغداد.

ووصف دوبريه المذاهب الاسلامية في بغداد وعدم وقوفه على الاقليات فقط، فقد كر ان المذهب السائد للدولة هو المذهب السني لكن ثلاثة ارباع السكان من المذهب الشيعي ، لكن رغم ذلك فهو يوشر انه رغم ان الدولة اعطت حقوق اقليات الدينية وسمحت لهم بفتح دور عبادتهم لكنها بالطرف المقابل منعوا الشيعة من ان يشيدوا اماكن عبادة خاصة لهم - واستثنى من ذلك اضرحة الائمة في سامراء والنجف وكربلاء- او ان يمارسوا طقوسهم بصورة علنية .[77]

ثامنا: رحلة المنشي البغدادي 1822.

كما وصف المنشي البغدادي مدينة بغداد بعد زيارتها عام 1822، فذكر ان المدينة كانت تحوي على مائة الف بيت تقريبا ، وضمت مختلف الملل والمذاهب، ففيها من الاقليات الدينية عدد غير قليل ،فهي تضم 1500 بيت لليهود و 800 بيت للنصارى كما تضم 3000 بيت من العجم وهم من الشيعة الاخبارية.[78]

ان اعداد بيوت الاقليات حتى زيارة المنشي كانت كثيرة وهذا الكثرة يدل على التسامح مع الاقليات واعطاهم حقوقهم ،فلوكان عكس ذلك للمسنا قلة عددهم وزيادة هجرتهم او لذكر الرحالة ذلك.

تاسعا: رحلة فريزر 1834.

زار الرحالة فريزر العراق عام 1834 ، وقدم وصفا لبغداد، فهو لم يكتف بذكر عمارتها واسواقها ، بل ذكر احوال اهالي بغداد وطوائفهم الدينية وطرق تعايشهم وحياتهم ، فقد قال " ... **ان مدينة بغداد مدينة منفتحة دينيا فلا يكن المسلمون فيها العداء لبقية الطوائف ...**"

DOI:10.18018/URUK/020-13/200-219

وقد اشار الرحالة الى التسامح الاسلامي لاسيما بعد السماح له بدخول جامع الخلفاء والصعود الى منارته والتجول فيه ، حيث قال " ... ويعد هذا الحوض اعلى نقطة يمكن الارتقاء اليها ومشاهدة منظر المدينة العام منها ، وهو بشكل عام يشرف على معظم السطوح والساحات لمسافة طويلة من حوله ، وقد استغربت حقا ان اجد ان كفارا مثلنا يسمح لهم بالصعود الى ارتفاع يتفرجون منه على المسلمين...". [79]

يبدو ان الرحالة فريزر حاول ان يصف احوال المسلمين في بغداد، وطريقة تعاملهم مع الاجانب لاسيما من الديانات الاخرى ، فهو مدح وذم ، فقد مدحهم عندما سمحوا له بدخول المسجد والتجوال به ، وذلك بحد ذاته منقبة لمسلمي بغداد ، لكنه حاول ان يذمهم عندما قال " **وقد استغربت حقا ان اجد ان كفارا مثلنا يسمح لهم ...**" فهو يؤشر ان المسلمين يعتبرون المسيحيون كفارا ، وهذا بحد ذاته مغالطة كبرى وعدم فهم للدين الاسلامي، فالأخير يعتبرهم اهل كتاب وهؤلاء ليسوا كفارا بالشريعة الاسلامية ، كما ان سماحهم له بدخول المسجد والتجوال فيه خير دليل على ذلك .

واشار الرحالة الى ان المسلمين فقط كان لهم حق امتلاك العبيد وليس لليهود او النصارى الحق في ذلك ، ولا يحق لهم ركوب الخيل والدواب الاخرى في الشوارع.[80]

ان اشارة الرحالة تلك لا تتعلق بقوانين مجتمعية مفروضة على غير المسلمين ، بل هي مجموعة قوانين وضعتها الدولة العثمانية على الاقليات الدينية وليس لأهالي بغداد دخل فيها، لكن الرحالة لم يتطرق الى تلك القوانين الحكومية بل حاول ان يظهر بشيء من الريبة ان تلك القوانين هي مجتمعية وتهدف للتمييز الديني، وهذه الرؤية كانت مشبعة بعقول الكثير من الرحالة حتى قدومهم للشرق ووصفهم للتعايش فيه.

المبحث الثالث : التعايش الديني في بغداد كما وصفها الرحالة الاجانب بعد الاصلاحات العثمانية.

مع ازدياد حدة التدخل الاجنبي في الشؤون الداخلية للدولة العثمانية بحجة حماية الاقليات الدينية ، لجأت الدولة العثمانية الى اصدار مجموعة من القوانين التي اكدت من خلالها على احترام حقوق الاقليات الدينية، وهذه القوانين هي (مرسوم كولخانة) 1839 ، ومرسوم (همايون) 1856، اذ اكد المرسومان على مساواة جميع الرعايا العثمانيين امام القانون ، ومنحت الاقليتان (المسيحية واليهودية) حق الاشراف على امورهم الدينية وادارة امورهم الدينية ومؤسساتهم التعليمية ، كما منح رؤسائهم امتيازات خاصة.[81]

لم تكتف الدولة العثمانية بإعطاء رؤساء الطوائف حقوق استثنائية ، لكنها تدخلت لتنظيم العلاقة بين الطوائف ضمن الدين الواحد ، وارادت بذلك قطع الطريق على الدول الاجنبية للتدخل في الشؤون الداخلية للدولة العثمانية بحجة حماية الاقليات او المذاهب المتصارعة ، ففي عام 1839 اصدر السلطان عبد المجيد الاول ارادة سنية تقضي بحل النزاعات بين اي طائفتين عن طريق اجتماع رؤساء الطائفتين في مكان تحدده الدولة ، ويبت في ذلك النزاع عن طريق مجلس الاحكام العدلية ، وبحضور زعيمي الطائفتين المتنازعتين، وكانت الدولة تتدخل لحل المشكلات العالقة.[82] لذا انعكست النتيجة الايجابية لتلك الاصلاحات على حال الاقليات في بغداد مما جاء في ذكر الرحالة الاجانب الذين زاروا المدينة خلال تلك المدة.

اولا: رحلة بنيامين التطلي الثاني.

وصف الرحالة بنيامين التطلي الثاني[83] في رحلته الى الشرق(1846-1851) اوضاع يهود العراق وحرية معيشتهم وتجارتهم ، فقال " **ان نفوس اليهود في بغداد بحدود ثلاثة الاف عائلة ، بينهم التجار والصناعيون والاغنياء ، يساهمون في تقدم التجارة وفعاليات رئيسة اخرى ، ....، تجد تجارا من الدرجة الاولى من اليهود المنتشرين في جميع انحاء البلاد في كل مرافق الحياة، وفي مناطق بعيدة واقطار مختلفة مستخدمين المنافسة الحرة في التعامل مع الناس ...**".[84]

نجد في كلام بنيامين ان اعداد اليهود في بغداد بلغ 3000 عائلة اي زيادة بنسبة 100% عن ما ذكره الرحالة

DOI:10.18018/URUK/020-13/200-219

المنشي البغدادي وهذه الزيادة لا تتحقق خلال الفترة القصيرة بين الرحلتين اذ لم تمض بينهما اكثر من 24 سنة ، لذا يمكن ان نعزو الزيادة الحاصلة (ان صحت) بسبب الهجرات الى العراق من ارجاء الامبراطورية فضلا عن الزيادة الطبيعية البيولوجية للسكان على الرغم من ان ذلك لا يعدو ان يكون تخمينا لعدم وجود تعداد رسمي للسكان آنذاك.

كما ذكر عالم الاثار الفرنسي اوبرت (Oppert) الذي عاش فترة غير قليلة في العراق خلال خمسينيات القرن التاسع عشر ما نصه " **ليس هناك بلاد اخرى تتمتع فيها العقيدة الكاثوليكية بمثل ما تتمتع به في بلاد الدولة العثمانية الاسيوية ، ولا توجد هناك اي قوانين تحد من القيام بالطقوس الدينية او تهدد ممتلكات الكنيسة وانه ليس في بغداد اضطهاد ديني**".[85]

ويشير الرحالة جونز الذي زار بغداد عام 1853 الى تسامح البغداديين بقوله " يوزع اهالي بغداد في محلات منفصلة ، ويعيش النصارى واليهود بحرية تامة، وبإمكانهم ركوب الدواب داخل المدينة ...، والسكان وادعون وليس هناك من مظاهر للتعصب الديني ، فاليهودي والنصراني يلقى التسامح ويتمتع بحصانة لا يجدها في اي مكان اخر".[86]

يتضح من كلام جونز كيف تغيرت احوال الاقليات في بغداد ، وكيف اسهمت القوانين العثمانية في اعطاء الاقليات حقوقها ، ففي وقت كان لا يسمح لهم بركوب الدواب او لبس زيهم الخاص ، صاروا يتمتعون عام 1853 بحرية لا يتمتع بها غيرهم في مناطق اخرى من الدولة العثمانية.

ثانيا : رحلة اينهولت. 1866

قدم الرحالة الهولندي اينهولت وصفا شاملا ودقيقا لبغداد وسكانها وعاداتهم وطقوسهم وازيائهم وغير ذلك، فبغداد بحسب اينهولت كانت تضم اعدادا كبيرة من التجار العرب والعجم والكرد والهنود والكرج والارمن واليهود ،وهم يختلفون من حيث الملبس[87] وطريقة العيش، اذ كانت المدينة مقسمة الى اربعة اقسام هي محلة الميدان التركية ومحلة المسلمين واخريتين لليهود والنصارى.[88]

ينفرد الرحالة اينهولت بتقسيم احياء بغداد على اساس ديني ، فلم يشير الى ذلك اي من الرحالة والكتاب الذين كتبوا عنها ، فالبغداديون اعتادوا على العيش متجاورين مختلطين ، ولم تقسم بغداد على اسس دينة طيلة تاريخا ، فحتى المناطق ذات الاغلبية الدينية (لدين معين) لم تكن تخلوا من اصحاب الديانات الاخرى ، لكن يمكن استثناء المناطق ذات القدسية الدينية من ذلك .

كان اغلب البغداديون يشاركون بعضهم في العزاء، فالمسلمون يحرصون على زيارة اصدقائهم وجيرانهم من الطوائف الاخرى لتقديم التعازي ، واشار اينهولت لذلك بقوله " **اما المسيحيون فيذهبون في الصباح الى الكنيسة للصلاة على روح المتوفى ... وعند دخول المعزين الى الدار لإداء مراسم التعزية يقرا المسلمون (الفاتحة) والمسيحيون (ابانا الذي في السماء) ، ويجتمع الناس للعزاء ايضا في يوم السابع وفي الاربعين ، ويستمر الحزن سنة واحدة يراعيها اهل المتوفي بدقة بالغة ولا سيما بين الموسويين والمسيحيين، اما المسلمون فلا يلبسون الحداد بتلك الدقة البالغة ، والكثير من نسائهم لا ينتظرن انقضاء الحول لرفعه**".[89]

يبدو ان العادات والتقاليد تداخلت بصورة كبيرة بين العراقيين بمختلف دياناتهم، فالمسلمون بحسب كلام اينهولت لم يكونوا يلزموا الحداد على روح المتوفي لمدة سنة كاملة ، واشار الى انها عادة يهودية نصرانية ، لكن نجد ان تلك العادة اصبحت جزءاً من الموروث الاجتماعي لأغلب المسلمين في العراق حتى الوقت الحاضر، ويبدوا ان تلك العادة هي عادة مكتسبة من الموروث اليهودي والمسيحي ، وبما ان العادات هي حصيلة اولية للتعايش والاختلاط لذا يمكن ان نقول ان العادات الدينية قد امتزجت بالموروث الشعبي واصبحت جزءا اساسيا من تراث الامة ، وان دل ذلك على شيء فهو يدل على ان الاقليات بحكم اختلاطها وتعايشها اصبحت تتبادل الموروثات الشعبية والعادات المتداولة.

DOI:10.18018/URUK/020-13/200-219

يورد اينهولت مجموعة من العادات والتقاليد التي يتشارك بها اهالي بغداد على اختلاف عقائدهم وديانتهم ، وعدها من الخرافات والتقاليد غير المنطقية التي اعتاد الناس عليها وتوارثوها من جيل لآخر ، فمثلا اذا سافر احدهم الى مكان ما فيجب ان لا تكنس داره الا بعد التأكد من عبوره نهرا او جدولا كبيرا لان ذلك الفعل يضره بصورة كبيرة ، وبدوره يجب ان يحضر مجموعة من الهدايا (الصوغة) لأصدقائه عند العودة ، فيما يعتقد الكثير من الناس ان سبب نحسهم او مصائبهم هي عتب دكاكينهم او بيوتهم فهي تصيبهم بالإفلاس او المرض ، وهم يؤمنون بايام السعد والنحس ، فهناك في كل شهر سبعة ايام للنحس ويسمونها الكوامل وهي (3 ،5، 13، 16 ، 21 ، 23 ، 25) ففي هذه الايام يمتنع الناس من السفر ومباشرة الاعمال التجارية والاتيان بالمناسبات العائلية ، ويعتبر يوم الجمعة من الايام التي لا يقص بها الاظافر خوفا من الامراض ، ويعملون على سكب الماء بعد المسافر لضمان عودته سالما ، اما شهر محرم وصفر فلا يعقد بهما الزواج لكره ذلك عند الشيعة المسلمين ، وفي اخر اربعاء من شهر صفر يعمل الناس على كسر الجرار والصحون ومواعين الخزف لإبعاد نحس ذلك الشهر، اما اهالي المرضى فهم يتعرفون على مصير مريضهم فيما اذا كان سيموت او يبرا من مرضه من خلال قيامهم برمي فحم مضطرم امام داره يوم الجمعة ، ثم ينصتون الى اول كلام يصدر من المارة ، فاذا كان طيبا شفي المريض واذا كان سيئا عرف انه سوف يموت ، وتسمى هذه العملية (حجارة الدرب) ، ومن العادات الاخرى ان لا يمر الرجل بين امرأتين لان بينهما شيطان ، واذا مرت المرأة بين رجلين فان زوجة احداهما سوف تموت حتما.[90]

اشار اينهولت ان مسيحيي بغداد لم يمارسوا طقوسهم الدينية بحرية كاملة فقط ، بل شيدوا بالإضافة لدور العبادة (الكنائس) تماثيل للسيدة مريم العذراء ، فقد حاولوا ان يقلدوا التماثيل الكبيرة في اوربا ، وفي مدينة مرسيليا تحديدا حيث تمثال السيدة العذراء المرفوع على صخرة بري ، وكذلك في مدينة ليون . فقد عمل احد القساوسة الكرمليين وهو الاب (ماري جوزيف) على شراء تمثال من البرونز للسيدة العذراء وجاء به الى بغداد ، وقد بحث على اعلى قمة لرفع ذلك التمثال ، ولما لم يجد ذلك المكان قرر ان ينقله الى بابل ويضعه فوق برج بابل ، واعلن نيته تلك خلال قداس يوم الاحد وطلب من الناس السير معه لنصب التمثال ، وكان له ما اراد وسار معه عدد من مسيحيي بغداد وتم وضعه في المكان المحدد بعد ان نصبت له قاعدة كبيرة فوق تل شاهق لا يقل ارتفاعه عن 150 قدم ، وخلال ذلك تعالت اصوات مسيحيي بغداد بالأناشيد المقدسة التي رددوها بأصوات عالية ، لكن لسوء الحظ ان فرحة الاباء الكرمليين لم تستمر طويلا، فقد وصلت الانباء ان التمثال قد سيطر عليه بعض الاعراب في المنطقة ، ونتيجة لذلك قرر الاب ان يستعيد التمثال ، فارسل لهم مندوبا عنه ليحقق ذلك الغرض ، وبعد وصول مندوبه اكدوا له انهم وجدوا التمثال مرميا في سفح التل وان سبب سقوطه هي الريح الشديدة ، وعليه حمل الاعراب ذلك التمثال الى بغداد حيث كنيسة الاباء الكرمليين ، فعمل الاب على تكريم اولئك الاعراب بمبلغ من المال ، وقد وضع تمثال السيدة العذراء في مقر الكنيسة واطلق عليه لقب (سيدة بابل).[91]

ان حادثة تمثال السيدة العذراء ورفعه فوق برج بابل له دلالات عدة هي:

1- ان ذلك الفعل يعد الاول من نوعه في العراق ، فلم تقدم قبل ذلك اي كنيسة على رفع تمثال مثله فوق بناء شاهق في ارض غالبية سكانها من المسلمين.
2- يظهر ذلك مدى احترام الولاة العثمانيين واهالي بغداد والحلة للعادات الدينية المسيحية وتفهمهم لها.
3- ان فعل الاعراب يعد فعلا مهما يبين حالة التفاهم والتعايش وعدم التعصب بين الاديان ، ففي الوقت الذي تقوم به كنيسة مسيحية بنصب تمثال للسيدة العذراء وسقوطه بسبب الرياح، تقوم الاعراب بالاحتفاظ بذلك التمثال

DOI:10.18018/URUK/020-13/200-219

وعدم الاساءة اليه واعادته الى كنيسة الكرملين ، وذلك الفعل يدل على مدى الاحترام والتعايش بين ابناء المجتمع الواحد، والتفهم الكبير لمعتقدات الاقليات في العراق.

ثالثا: رحلة بيري فوك 1875

كانت اعداد المسيح واليهود في تزايد مستمر (لا سيما بعد رحلة اينهولت) وكانوا يتمتعون بكافة حقوقهم المدنية والدينية، فقد وصف الرحالة بيري فوك احوال المسيح في بغداد بعد زيارته لها عام 1875 بقوله " **في صباح كل يوم احد تجرى الخدمة الكنائسية الانكليزية يقوم بها الكولونيل هربرت في المقيمية ، ولا يتجاوز عدد المصلين العشرين وهم جميع سكان البروتوستانت في بغداد تقريبا ، وقد زرت مختلف الكنائس المسيحية في بغداد ... وقد دخلنا اول الامر الى كنيسة اللاتين الكاثوليكية ولها ملحق متصل بها ، اتخذته مدرسة للأولاد ....، والقسيسون الفرنسيون ورعيتهم تتكون من عدد قليل من المقيمين في بغداد من البلدان الكاثولوكية في اوربا وقسم من هؤلاء تزوجوا من نساء بغداديات... ثم ذهبنا الى كنيسة الكلدان وكنيسة الارمن وكنيسة الارمن الارثدوكس ، تشمل عددا من اقدم العائلات المسيحية واغناها ، والكنائس الاخرى لهذا العنصر القديم تعترف برئاسة (البابا) الروحية ويدخل معهم تحت سلطته قسم كبير من السكان الكلدان والقبط** ..."[92] وقال ايضا " ان نصارى بغداد يمارسون عباداتهم بحرية تامة وهذا الشئ تميزت به بغداد منذ القدم " [93]

كما وصف الرحالة العوائل اليهودية في بغداد وعلاقتهم الحسنة مع الاقلية المسيحية وحسن كرمهم بقوله " ... **وبعدما تركنا المطران المسيحي ، ذهبنا الى دار شخص من اغنياء اليهود ، وتعارفت مع كافة افراد العائلة، من الجد الى اصغر الاولاد ، وصافحتهم واحدا واحدا، وقد كانوا على جانب من الرقة وحسن الضيافة**..."، كما خمن عددهم وذكر مهنهم بقوله " يبلغ عدد السكان اليهود في بغداد العشرين الف نسمه ، ومنهم – كما هم في كل مكان – الصرافون والدلالون والمستخدمون الموثوق بهم من قبل كافة الطبقات في تبادل النقود في البلد ، وغناهم العظيم ، الذي كان في السابق مبعث على سرقتهم واضطهادهم ، ولكنه الان يدعو الى احترامهم حتى من قبل الاتراك والمسلمين المتعصبين ". [94]

ان كلام الرحالة يشير الى زيادة كبيرة في اعداد المسيحين في بغداد ، وزيادة في عدد الكنائس الموجودة لتعدد المذاهب الوافدة الى المدينة ،وان تلك الزيادة تنم عن حالة ايجابية من التسامح والانفتاح الديني، اما كلامه عن الاقلية اليهودية واضطهادهم فهو مجانب للحقيقة ، فالتضييق على الاقليات كان من قبل السلطة الحاكمة وليس الاقليات الاخرى والتضييق عليهم لم يكن بمنأى عن التضييق عن بقية الاقليات ، بل على العكس من ذلك ان هذه الاقلية كانت الاقل اضطهادا خلال حقبة السيطرة الصفوية ، اما بعد ذلك فان الدولة العثمانية كانت تفرض عليهم والاقليات الاخرى رسوما رمزية[95] (كجزية) تفرض على الشخص البالغ جزاء حمايتهم ، وقد مارس الجميع طقوسهم كأي اقلية في العراق.

وهكذا عاشت الاقليات في العراق تضطهدها سياسات السلطة تارة وتسامحها تارة اخرى ، وعاشت مع الاكثرية المسلمة في جو من التسامح والمحبة بعيدا عن املاءات السلطة وقوانينها، فالعراق في تاريخه لم يخلو من اقلياته ولم يفقد الاكثرية اعتدالهم وتسامحهم.

الخاتمة

1- كانت بغداد اهم المدن العراقية من حيث تعايش الاقليات والاديان كونها ورثت فكر وثقافة ذلك التعايش من ارثها العراقي الضارب في التاريخ.
2- كانت الاقليات في بغداد تتعرض لبعض المضايقات الحكومية العثمانية من خلال فرض الجزية او منعهم من ممارسة حياتهم بصورة طبيعية اسوة بالمسلمين .
3- كانت اوضاع الاقليات الدينية قبل اعلان مرسومي كولخانة وهمايون يتعرضون للتمييز

DOI:10.18018/URUK/020-13/200-219

الحكومي ويحددون في اشياء كثيرة تصل في بعض الاحيان الى منعهم من ممارسة شعائرهم الدينية ، كما حرموا من دخول وتشييد اماكن العبادة بحرية .

4- كانت حقبة المماليك في بغداد من اكثر الحقب تشديدا على الاقليات الدينية الا ما ندر (خلال مدة حكم احمد باشا) ، فكل شيء كان يخضع لمزاج الوالي وحاشيته ، لان الوالي لم يكن لديه ارتباط مباشر بالدولة العثمانية بصورة مباشرة ، بل كانت هنالك ادارة شبه مستقلة لبغداد .

5- استطاعت الاقليات من ممارسة طقوسها بحرية تامة بعد اعلان الاصلاحات العثمانية (كولخانة وهمايون) ، فقد استطاعوا من تشييد الابنية الخاصة بهم وممارسة طقوسهم بحرية تامة ، وصارت الدولة تعاملهم بصفتهم راعيا لها شانهم شان المسلمين.

6- كانت فكرة التعايش الديني حاضرة وبقوة في بغداد خلال الحقب الزمنية المختلفة ، فالتشديد والانفتاح الحكومي كان يختلف عن التواصل والتعايش الشعبي ، فالبغداديون لم يميزوا بين اقليات الاديان او يميزوهم بل تعايشوا معهم بحرية كاملة.

7- حرص الرحالة الاجانب على ذكر اوضاع مدينة بغداد بصورة عامة ، وكان هنالك اشارات للتعايش الديني في كتاباتهم ، فلم يرصد جل الرحالة حالات صراع و تنازع او تضييق ديني بين ابناء المجتمع البغدادي طيلة مدة البحث .

8- كانت الاقليات في بغداد تحظى بحرية واسعة تفتقر لها اغلب الاقليات في الدولة العثمانية، وحتى بعض الدول الاوربية ، وقد اشار الى ذلك بعض الرحالة ، وهذا مؤشر مهم وايجابي للتعايش الديني في بغداد بصورة خاصة والعراق بصورة عامة.

الهوامش

[1] - نبيل الربيعي ، تاريخ يهود العراق (859 ق.م – 1973م) ، الجزء1 ، دار الرافدين للطباعة، بيروت ،2017، ص 95.

[2] - نقلا عن:

رفائيل بابو اسحق ، تاريخ نصارى العراق(100 -2006م)، مطبعة المنصور ، بغداد ، 1984 ،ص 120.

[3] - سامي ناظم حسين المنصوري ، السياسات والاثنيات في العراق منذ الحكم العثماني حتى الوقت الراهن ، تحرير : سعد سلوم ، مؤسسة مسارات للتنمية الثقافية والاعلامية ، بغداد ، 2014، ص 20-21.

[4] - مقتبس من:

نبيل الربيعي ، المصدر السابق، ص100.

[5] - لقى اليهود الكثير من المضايقة في عهد المماليك ، اذ اعتبروهم اداة للتدخل الفرنسي والبريطاني في العراق ، فقد دبروا مؤامرة اظهرت الوالي سعيد باشا (1813-1816) وكانه خارج عن السلطان ، وتحالفوا مع الوكيل السياسي البريطاني في بغداد كلاوديوس جيمس - ريتش (Rich) ضد الوالي داوود باشا (1817-1831). للمزيد ينظر:

عبد العزيز سليمان نوار ، تاريخ العراق الحديث من نهاية حكم داوود باشا الى نهاية حكم مدحت باشا، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة ، 1968، ص316.

[6] - سامي ناظم حسين المنصوري ، المصدر السابق، ص ص205-206.

[7] - جرجيس جبرائيل هومي، القوميات العراقية ماضيها وحاضرها، مطبعة الارشاد ، 1959 ، ص ص 87-88.

[8] - - سامي ناظم حسين المنصوري ، المصدر السابق، ص ص205-206.

[9] - ليوناردو الكرملي ، معرفة الشرق في العصر العثماني، الرحلة الايطالية الى العراق، ترجمة بطرس حداد ، المركز الاكاديمي للأبحاث، بيروت، 2013، ص5.

[10] - المصدر نفسه، ص 6.

[11] - الانسانيات: هو تيار ظهر في اوربا هدفه البحث عن العلوم الانسانية مثل الفن والشعر والتاريخ والفلسفة والقانون وغيره ، وقد اهتم بالإنسان بوصفة اساس البحث واصل الوجود ، لذا انشغل اغلب العلماء آنذاك بالبحث في العلوم الانسانية وطريقة تطويرها وبناء المجتمع. للمزيد ينظر:

https://ar.wikipedia.org

[12] - ديللافاليه ، رحلة ديللافاليه الى العراق، ترجمة بطرس حداد، شركة الديوان للطباعة، بغداد،201، ص ص3-4.

[13] - للاطلاع التفصيلي عن اسباب الرحلات الى العراق ينظر:

حيدر جاسم الرويعي، اهداف الرحالة الاوربيين وتوجهاتهم الى العراق، مجلة القادسية للعلوم الانسانية ، العدد 2، المجلد 15 ، 2012.

[14] - للاطلاع على وصف المدن العراقية ينظر:

جيمس فيلكس جونز، مذكرات القائد جيمس فيلكس جونز: بغداد في منتصف القرن التاسع عشر، ترجمة: عبد الهادي فنجان الساعدي، دار

ومكتبة عدنان، بغداد، 2014. ؛ جيمس بلي فريزر، رحلة فريزر الى بغداد ، دار الكتب العلمية، بغداد، 2013.

[15] - للاطلاع على اوضاع العراق نهاية الدولة العباسية وخلال مدة الحكم الصفوي والعثماني الاول ينظر:
عبد الامير الرفيعي ، العراق بين سقوط الدولة العباسية وسقوط الدولة العثمانية ، ج 1،2 ، بدون مكان او تاريخ. ؛ علاء موسى نورس ، العراق في العهد العثماني دراسة في العلاقات السياسية 1700-1800، دار الحرية للطباعة، بغداد، 1979.

[16] - علاء موسى كاظم نورس ، احوال بغداد في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر . دراسة لمختارات مما كتبه الرحالة الاجانب، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد، 1990، ص10.

[17] - لوينهارت راوولف ، بغداد في سنة 1753، ترجمة سليم طه التكريتي ، بغداد، 1978، ص75.

[18] - كاسبرو بالبي، رحلة بالبي الى العراق، ترجمة بطرس حداد، دار الشؤون الثقافية ، بغداد، 2005 ، ص71.

[19] - علاء موسى كاظم نورس ، احوال بغداد في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، ص ص11-12 .

[20] - ديللافاليه ، المصدر السابق، ص ص43-44.

[21] - المصدر نفسه، ص44.

[22] - المصدر نفسه، ص45.

[23] - هيرونيموس سبستياني، رحلات سبستياني للعراق (القرن السابع عشر)، ترجمة بطرس حداد، شركة الديوان للطباعة ، بغداد،2004، ص32.

[24] - جاكسون، مشاهدات بريطاني في العراق سنة 1797 ترجمة فاروق عمر، الدار العربية للموسوعات ، بيروت،2000، ص ص 84-92.

[25] - رحلة دوبريه الى العراق (1807-1809) ، ترجمة بطرس حداد ، الوراق للنشر ، بغداد ، 2011، ص92.

[26] - المصدر نفسه، ص125.

[27] المصدر نفسه، ص ص127-128.

[28] - رحلة المنشي البغدادي ، ترجمة ،عباس العزاوي المحامي ، شركة النجاة لطباعة المحدودة ،بغداد ،1948،ص24.

[29] - المصدر نفسه،ص31.؛ جيمس بلي فريزر، رحلة فريزر الى بغداد ، دار الكتب العلمية، بغداد، 2013، ص72.

[30] - رحلة المنشي البغدادي ، المصدر السابق، ص ص 25-30.

[31] - المصدر نفسه،ص30.

[32] - جيمس بلي فريزر، المصدر السابق، ص ص 74-78.

[33] - احمد حسين عبد الجبوري ، الاوضاع الاجتماعية في بغداد من خلال كتب الرحالة الاجانب في العهد العثماني، مجلة سر من رأى، المجلد 3، العدد 5، السنة 3، 2007، ص55.

[34] - عبد الرزاق الهلالي ، تاريخ التعليم في العراق في العهد العثماني (1638 - 1917) ، الرافدين للنشر ، لبنان ، 2017 ، ص188.

[35] - ديللافاليه ، المصدر السابق، ص ص 36-37.

[36] - يذكر الاستاذ يوسف غنيمة في معرض حديثه عن تلك الواقعة ، ان الشاه اسماعيل الصفوي قتل الكثير من المسلمين السنة وذبح جميع نصارى بغداد ولم يبق واحدا منهم ، اما اليهود فلم يتعرض لهم لانهم كانوا يهدونه الهدايا الثمينة ويعطوه الاموال الطائلة التي يحتاج اليها وقت ذاك، لذا لم يعاديهم الشاه واعطاهم الحرية في الاعمال كافة. للمزيد ينظر:
يوسف غنيمة، نزهة المشتاق في تاريخ يهود العراق ، ط4، الفرات للتوزيع والنشر، بيروت، 2009، ص ص175-176.

[37] - بطرس حداد ،كنائس بغداد عبر التاريخ ، مجلة بين النهرين العدد 32، 1980 ،ص418.

[38] - ديللافاليه ، المصدر السابق، ص48.

[39] - المصدر نفسه، ص ص 77-78.

[40] - للاطلاع عن معارك القوات الفارسية والعثمانية لاستعادة مدينة بغداد ينظر:
علاء موسى نورس ، العراق في العهد العثماني دراسة في العلاقات السياسية 1700-1800، دار الحرية للطباعة، بغداد، 1979، ص ص53-60.

[41] - هيرونيموس سبستياني، رحلات سبستياني للعراق (القرن السابع عشر)، ترجمة بطرس حداد، شركة الديوان للطباعة ، بغداد،2004، ص ص33-34.

[42] - كان المسيحيون في بغداد خلال العهد العثماني مقسمين الى قسمين كبيرين هما:
القسم الاول : والذي تنضوي تحته الاكثرية المسيحية (الكاثوليك) وينقسمون على (الكلدان والسريان واللاتين والروم والارمن الكاثوليك).
اما القسم الثاني فهم المسيحيون من غير الكاثوليك وهم (النساطرة واليعاقبة والارمن الارثدوكس والبروتوستانت والسبتيون) . للمزيد ينظر:
عبد الرزاق الهلالي ، المصدر السابق ، ص187.

[43] - هيرونيموس سبستياني، رحلات سبستياني للعراق (القرن السابع عشر)، ترجمة بطرس حداد، شركة الديوان للطباعة ، بغداد،2004، ص34.

[44] - بطرس حداد ، كنائس بغداد وديراتها، المركز الاكاديمي للابحاث ،تورنتو،2014، ص ص321-322

[45] - ستيفن همسلي لونكريك ، اربعة قرون من تاريخ العراق الحديث ، ترجمة جعفر الخياط، ط4، بغداد، 1968، ص113.

[46] - هيرونيموس سبستياني، المصدر السابق، ص36..

[47] - المصدر نفسه، ص47.

[48] - كان اكثرية الولاة مطلقي التصرف في ادارة شؤون الولايات ، فالوالي هو الراس لتلك الولاية يديرها حسب رغبته ورايه ، ويهيمن على كافة قضاياها ، وله صلاحيات داخل حدود الولاية قد تكون مطلقة ، فهو يسجن ويقتل ويحرك الجيوش لإخماد الثائرين ، ولم يكن الوالي يستشير الاستانة الا في اخطر الامور. للمزيد ينظر:

يوسف عز الدين ، داود باشا ونهاية المماليك في العراق ، دار البصرى ، بغداد ، 1967، ص5.

[49] - هيرونيموس سبستياني، المصدر السابق، ص68.

[50] - عباس العزاوي المحامي ، موسوعة تاريخ العراق بين الاحتلالين ، العهد العثماني الثاني ، المجلد 5 ، الدار العربية للموسوعات ، دون تاريخ ، ص76

[51] -مقتبس من:

سهيل قاشا ، تاريخ نصارى العراق ، ط2، دار الرافدين للطباعة ، بيروت ، 2014، ص630.

[52] - بطرس حداد ، كنائس بغداد وديارتها، المركز الاكاديمي للابحاث ،تورنتو،2014، ص ص321-322.

[53] -رحلة الفرنسي تافرنييه الى العراق في القرن السابع عشر ، ترجمة كوركيس عواد وبشير فرنسيس ، الدار العربية للموسوعات ، بيروت ،2006 ، ص ص 62-63.

[54] - نقلا عن:

بطرس حداد ، كنائس بغداد وديارتها، ص324.

[55] - هيرونيموس سبستياني، المصدر السابق، ص68.

[56] - ستيفن همسلي لونكريك ، المصر السابق، ص 113.

[57] - ليائدرو الكرملي ، معرفة الشرق في العصر العثماني، الرحلة الايطالية الى العراق، ترجمة بطرس حداد ، المركز الاكاديمي للأبحاث، بيروت، 2013، ص71.

[58] - المصدر نفسه، ص ص 72-92.

[59] - كانت مدة حكم حسن باشا وابنه احمد باشا تمثل مرحلة جديدة للإدارة في بغداد ، اذ غادرت به السلطة مرحلة العسكرية والتسلط وتتخذ لها مظهرا مدنيا لإدارة الحكم . للمزيد ينظر:

عماد عبد السلام رؤوف ، عادلة خاتون صفحة من تاريخ العراق ،ط1، بغداد، 1997، ص14.

[60] - ليائدرو الكرملي ، المصدر السابق، ص101.

[61] - بغداد في مذكرات الرحالة الفرنسيين، ترجمة وتعليق : وليد كاصد الزيدي ، ط2 ، بغداد، 2013، ص89.

[62] - تعرض الكرمليون لمضايقة السلطات العثمانية في بغداد عام 1701 ، اذ هاجم ديرهم الوالي مصطفى باشا دال طبان في 12 ايلول 1701 وامر بنهبه و بهدمه وطرد الكرمليين من المدينة عام 1708. للمزيد ينظر:

بطرس حداد ، كنائس بغداد وديارتها، ص324.

[63] - المصدر نفسه، ص325.

[64] - لم تكن في بغداد خلال تلك المدة مدارس مسيحية خاصة لها منهجها وبناياتها وشخصيتها الخاصة ، بل كانت عبارة عن مدارس بدائية للتعريف بالدين المسيحي دون تلقينهم العلوم الحديثة، فقد ذكر عبد الرزاق الهلالي ان اول مدرسة مسيحية فتحت في بغداد هي مدرسة الاتفاق الشرقي الكاثوليكي عام 1878. للمزيد ينظر:

عبد الرزاق الهلالي ، المصدر السابق، ص191.

[65] - ليائدرو الكرملي ، المصدر السابق، ص ص 101-102.

[66] - المصدر نفسه، ص104.

[67] - للمزيد عن الاحداث ينظر :

علاء موسى نورس ، العراق في العهد العثماني دراسة في العلاقات السياسية 1700-1800 ، ص ص 154-164.

[68] - ليائدرو الكرملي ، المصدر السابق، ص126.

[69] - وهم سكان مدينة كمباجا (كامبي) التابعة لمقاطعة كوجرات ، ويمتازون بانهم لا يتناولون اكثر من وجبة طعام واحدة في اليوم وغالبا ما تتكون من الرز والحليب والخبز، وهم لا يأكلون لحوم الحيوانات قط ، وهم يجرمون قتل الحشرات والقوارض وكل انواع الحيوانات الزاحفة، ويمتازون بكونهم حليقي اللحى طالقو الشارب وشعر الرأس، وهم يلبسون العمامة والملابس البيضاء ، وثيابهم طويلة جدا لذا يجمعون اذيالها عند الصدر، يتحدثون اللغة الهندية ، ويمتازون ببشرتهم السمراء الداكنة ، ومن معتقداتهم الدينية انهم يحرقون الميت ويذرونه في الماء والهواء والنار والمتبقي منه يدفن في الارض، ويعقدون ان الانسان مكون من مكونات الكون الاربعة وهي (الهواء والماء والنار والتراب) لذا يجب ان تسترجع هذه العناصر حصتها بعد الموت. للمزيد ينظر:

كاسبرو بالبي، المصدر السابق، ص ص94-96.

[70] - رحلة نيبور الكاملة الى العراق ، ترجمة سعاد هادي العمري واخرون، مراجعة وتعليق وتقديم : سالم الالوسي، الفرات للتوزيع والنشر ، بيروت، 2012، ص ص176-177.

[71] - احمد حسين عبد الجبوري ، الاوضاع الاجتماعية في بغداد من خلال كتب الرحالة الاجانب في العهد العثماني، مجلة سر من رأى، المجلد 3، العدد 5، السنة 3، 2007، ص59.

[72] - جاكسون، مشاهدات بريطاني في العراق سنة 1797 ترجمة فاروق عمر، الدار العربية للموسوعات ، بيروت،2000، ص ص 84-92.

[73] - سعاد هادي العمري ، بغداد كما وصفها السواح الاجانب في القرون الخمسة الاخيرة، بغداد، 1954، ص18. ؛ دوبريه، المصدر السابق، ص129.

[74] - بطرس حداد ، كنائس بغداد وديارتها، ص325.

[75] - رحلة دوبريه الى العراق (1807-1809) ، ترجمة بطرس حداد ، الوراق للنشر ، بغداد ، 2011، ص131.

DOI:10.18018/URUK/020-13/200-219

[76] - المصدر نفسه، ص 132.

[77] - المصدر نفسه، ص133.

[78] - رحلة المنشي البغدادي ، المصدر السابق ،ص ص 23-25.

[79] - جيمس بلي فريزر، المصدر السابق، ص80.

[80] - المصدر نفسه، ص ص136-138.

[81] - سامي ناظم حسين المنصوري ، المصدر السابق، ص20. ؛ بهاء حسين شاكر الشباني ، مسيحيو العراق 1958-1968 دراسة تاريخية ، رسالة ماجستير غير منشورة ، جامعة القادسية، كلية التربية ،2017، ص38.

[82] - سامي ناظم حسين المنصوري ، المسيحيون في العراق التاريخ الشامل والتحديات الراهنة ، تحرير : سعد سلوم ، مؤسسة مسارات للتنمية الثقافية والاعلامية ، بغداد ، 2014، ص214.

[83] **بنيامين التطلي الثاني**: هو بنيامين إسرائيل جوزيف ، ولد في منطقة فالتيتشيني، من مولدافيا، في رومانيا، الحالية عام 1818م، وتوفي في لندن يوم الثالث من شهر مايو عام 1864م. تزوج في سن مبكرة، وارتبط عمله بتجارة الأخشاب، ولكنه خسر ثروته الصغيرة، فتوقف عن التجارة، واصبح ميالا للمغامرة، حيث تبنى اسم بنيامين التطيلي، متأثرا به، والذي كان من أشهر الرحالة اليهود في القرن الثاني عشر. وبنيامين الثاني من اسرة يهودية أيضاً. وفي نهاية عام 1844م اختمرت في ذهنه فكرة البحث للعثور عن اماكن عشائر الأسباط العشرة من بني اسرائيل المفقودة، فانطلق في رحلة البحث هذه من فينا، حتى القسطنطينية، التي وصلها في عام 1845م. وبعدها باشر بحثه وبدأت رحلته، فقد امضى خمسة اعوام في اسيا، وثلاثة اعوام في أفريقيا. ووثقها على مرحلتين حيث سطر خطوات المرحلة الأولى بكتاب اسماه رحلة بنيامين الثاني خمس سنوات في الشرق؛ من عام 1846 حتى عام 1851م. متتبعا تواجد أبناء ديانته من اليهود في الشرق، متوجها إلى بلدان عدة منها فلسطين، لبنان، سوريا، مصر، العراق، إيران، الهند، سنغافورة، الصين، و أفغانستان. للمزيد ينظر: https://ar.wikipedia.org

[84] - نبيل الربيعي ، المصدر السابق، ص101.

[85] - نقلا عن :

عبد العزيز سليمان نوار ، تاريخ العراق الحديث من نهاية حكم داوود باشا الى نهاية حكم مدحت باشا، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة ، 1968، ص215.

[86] - احمد حسين عبد الجبوري ، المصدر السابق، ص63..

[87] - يورد الرحالة في كتابه فصلا عن لباس اهالي بغداد من النساء والرجال، فللهود لباسهم الخاص وكذلك للمسلمين عرهم وعجمهم وللمسيحيين ايضا، كما ذكر المناسبات البغدادية وطرق تزاورهم على اختلاف مللهم ونحلهم. للمزيد ينظر: ليكلاما اينهولت ، رحلة اينهولت الهولندي الى العراق سنة 1866-1867، ترجمة مير بصري، دار الوراق للنشر، بغداد،2012 ، ص ص53-69.

[88] - المصدر نفسه ،ص ص 47-49.

[89] - المصدر نفسه ،ص ص 72-73.

[90] - المصدر نفسه ،ص ص 75-77

[91] - المصدر نفسه ،ص ص 180-181.

[92] - بغداد بأقلام رحالة ، دار الوراق للنشر ، بيروت ، 2007، ص ص 162-163.

[93] - نقلا عن :

سامي ناظم حسين المنصوري ، المسيحيون في العراق التاريخ الشامل والتحديات الراهنة ، ص 203-204.

[94] - بغداد بأقلام رحالة ، المصدر السابق، ص ص 164-165.

[95] - كانت الدولة العثمانية تفرض جزية على الاقليات عندما يصل سن احدهم مرحلة البلوغ ، فيدفع عند ذلك 120 بارة كجزية ، وان 40 بارة تساوي قرشا واحدا فقط. للمزيد ينظر: دوبريه، المصدر السابق، ص132.

abstract

Foreign trips to Iraq are an important source of historical research. The travel books mentioned many details about the societies in which they were written, so we focused on the study of the coexistence of religion in Iraqi society during the Ottoman era. And how the relationship was between the Baghdadi community with various Malays and how did the Ottoman state relate to religious minorities, so the research was a shedding light of a certain period of time from (1573 - 1875) and how foreign travelers assessed the idea of cohabitation Through him The study also reflected the image of Iraqi society and the nature of religious and communal coexistence during that period.